Arab fire in the book "The Animal" by Al-Jahiz
Its occasions, rituals and the way Al-Jahiz treated them

Dr. Youssef Zarda*

(Received 29 / 11 / 2021. Accepted 21 / 2 / 2022)

□ ABSTRACT □

In this research, we have shed light on one of the many aspects that Al-Jahiz mentioned in his book "The Animal" during his extensive discussion of fire in general. This aspect concerns his talk about Arab fires, in terms of the reasons for setting it, and the various occasions on which the Arabs must seek help from fire, as it is a necessity of this or that occasion. After we talked about the occasions on which fire is kindled among the Arabs, we talked about what they practice - sometimes - of behavioral, set, and verbal rituals, while they set fire on this or that occasion. After we talked about the rituals associated with setting fire, we talked about the distribution of Arab fires between the real and the figurative, or imaginary. Then we moved to talk about Al-Jahiz's method of treating these fires, in terms of using evidence of poetry and impurity as examples, and lack of using such on evidence, other occasions, the in addition to his commenting on some of the evidence with explanations and interpretations, and not commenting on others. After that, we moved to talk about what Al-Jahiz mentioned about the aesthetics of fire, its benefits, its colors, and other different aspects of knowledge related to fire.

Keywords: Arab fire, dropsy fire, alliance fire, metaphorical fire.

***Associate Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria. youssefzarda@tishreen.edu.sy**

النيران عند العرب في كتاب "الحيوان" للجاحظ
مناسباتها وطقوسها وطريقة الجاحظ في معالجتها

د. يوسف زردة*

(تاريخ الإيداع 29 / 11 / 2021. قبل للنشر في 21 / 2 / 2022)

□ ملخّص □

لقد سلَّطنا في هذا البحث الضوء على جانبٍ من جوانبَ كثيرة متعدِّدة عُنِيَ الجاحظ في كتابه "الحيوان" بالحديث عنها في أثناء حديثه المُسْهَب عن النار بعامة. ويخصُّ هذا الجانبُ حديثَه عن نيران العرب، من جهة دواعي إضرامها، والمناسبات المختلفة التي لا بدَّ للعرب فيها من الاستعانة بالنار، بوصفها لازمةً من لوازم هذه المناسبة أو تلك. وبعد حديثنا عن المناسبات التي تُوقَدُ فيها النار عند العرب، تحدَّثنا عمّا يمارسونه ـ في بعض الأحيان ـ من طقوس سلوكيَّةٍ حركيَّةٍ، وأخرى لفظيَّة، أثناء إشعالهم النار في هذه المناسبات المختلفة. وبعد حديثنا عن الطقوس المرتبطة بإشعالهم النار، تحدَّثنا عن توزُّع نيران العرب بين الحقيقيِّ منها والمجازيِّ التشبيهيِّ، أو التخييليِّ. ثمَّ انتقلنا إلى الحديث عن طريقة الجاحظ في معالجة هذه النيران، من جهة استعانته في معالجة بعضها بشواهد من الشعر والرجز، وعدم استعانته في معالجة بعضها الآخر بشيء من الشواهد، وكذلك من جهة تعقيبه على بعض الشواهد بشروحٍ وتفاسير، وعدم تعقيبه على بعضها الآخر بشيء. وبعد ذلك انتقلنا إلى الحديث عمّا ذكره الجاحظ من أقوال في جماليات النار، وفوائدها، وألوانها، وسوى ذلك من معارف مختلفة متصلة بها.

الكلمات المفتاحيّة: نيران العرب، نار الاستسقاء، نار التحالف، النيران المجازية، نار الغول، نار اليراعة.

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة –جامعة تشرين– اللاذقية– سورية. youssefzarda@tishreen.edu.sy

مقدمة

ربما حظيَ موضوعُ النار في كتاب "الحيوان" من اهتمام الجاحظ بما لم يحظَ بمثله موضوعٌ آخرُ، على الرغم من كثرة الموضوعات التي عالجها في هذا الكتاب. وقد تجلى هذا الاهتمام بالموضوع في مظهرين اثنين: أولهما إفرادُه له ما يربو على المائة والخمسين صفحة شغلت القسم الأخير من الجزء الرابع من الكتاب، والقسم الأول من الجزء الخامس منه، وثاني هذين المظهرين معالجتُه الموضوعَ من جوانبَ مختلفة معالجةً تتمُّ على عنايته به عناية تتناسب وأهميّةَ النار في الحياة بمقوِّماتها المختلفة الإنسيَة والحيوانيّة والنباتيّة وغيرها؛ فتحدّث عن آراء الفلاسفة وعلماء الكلام في هيولا النار وعنصرها الرئيس، أكامنٌ هو في الأشياء التي اشتعلتْ فيها النار، أم أنه خارجٌ عنها، وطارئٌ عليها[1]، فأثبتَ اختلافَ كلٍّ من أبي إسحقَ النَّظّام، وضرار بن عمرو في ذلك، بوصف الأول منهما مُمثِّلاً للقائلين بكمون النار في الأشياء، وثانيهما ممثِّلاً للقائلين بعدم صحّة نظريّة الكمون. كما أثبت ردَّ النظّام على أرسطاطاليس في أصل النار وطبيعتها وعلاقتها في الأشياء التي تتداخل معها، وتحدَّثَ عن آرائهم في الضِّرام الذي يُورَى في الشجر، وفي الشَّرر الذي يظهر من الحجر، وعن آرائهم في لون النار في حقيقتها، وعن أثر الشَّرر في طبائعها، وعن الآثار النفسيَّة التي تبعثها رؤية النار في الإنسان كبيراً كان هذا الإنسان أم طفلاً صغيراً.

منهج البحث:

رأينا أن نسلك في هذا البحث سبيلاً يؤول بنا إلى توزيع حديثنا فيه على أربعة عناوين رئيسة، نتناول تحت الأول منها توزُّعَ نيران العرب بين الحقيقيّة منها والمجازيّة، ونتحدّث تحت العنوان الثاني عن مناسبات إضرام النيران وطقوس العرب في ذلك، ونتحدّث في الثالث عن طريقة الجاحظ في معالجة هذه النيران، الحقيقيّ منها والمجازيِّ التشبيهيِّ، ونتحدَّث تحت العنوان الرابع عن طبيعة النار، وآثارها في الأشياء، وألوانها، وفوائدها التي جاء الجاحظ على ذكرها.

أولاً: النيران الحقيقيّة عند العرب والنيران المجازيّة:

يستطيع الدارس في كتاب "الحيوان" للجاحظ أن يميزَ بين ضربين للنيران التي ذكرها العرب في أشعارهم وأراجيزهم وأخبارهم، يتمثّل الضرب الأول في النيران الحقيقيّة الماديّة أو الطبيعيّة التي كانوا يُضرمونها بأيديهم في مناسبات مختلفة، لا غِنى لهم في أيٍّ منها عن الاستعانة بالنار بوصفها ركناً أو مُقوِّماً رئيساً من مقوِّمات هذه المناسبة، أو تلك. ويتمثّل الضرب الثاني فيما أسماه العرب ناراً، وهو ليس بنارٍ أُضرمَتْ في شيء، فكانت لذلك نيراناً مجازيّة، على سبيل التشبيه والتمثيل، أو التخييل، على حدِّ تعبير الجاحظ نفسه.

فمن النيران الحقيقية التي عُنِيَ الجاحظ بالحديث عنها في "الحيوان" نارُ الاستسقاء أو الاستمطار[2]، ونارُ الحِلْف أو العهد، ونارُ مَنْ عساه ألّا يعود إذا غادر أو سافر، ونارُ تحشيد الأنصار والحلفاء، ونارُ الصيّادين والقنّاصين، ونارُ الفارّين والخلعاء من لصوص وغيرهم، ونارُ المحتالين من رجال الدين أو سَدَنَة بيوت العبادة، ونارُ مُلتمِس القِرى، ونارُ

---

[1] ـ ذهب بعض العلماء ومن بينهم أبو إسحق النَّظَّام، إلى الاعتقاد بكمون النار في الأشياء؛ من عيدان وغيرها،الأمرُ الذي يعني أنَّ احتراق العود أو غيره، إنما هو إخراجٌ للنار الكامنة فيه أصلاً، وليس اجتلاباً للنار إليه من مكان آخر. وذهب غيرهم إلى أنَّ النار غيرُ كامنة في الأشياء، أو حالَّةٌ فيها، إنما هي شيءٌ خارج عنها؛ وهؤلاء يرون أنَّ العودَ إذا احتكَّ بالعود، حميَ العودانِ كلاهما، ثم يحمى الجزءُ الذي بينهما من الهواء، فإذا زاد الإحماءُ عن حدِّه، رقَّ العود، ثمَّ جفَّ حتى التهبَ، وبذلك تكون النارُ التي اشتعلت في العود هواءً استحال ناراً، وليست ناراً في أصلها. انظر شرح رأي كلٍّ من الفريقين في الحيوان: 5/ 5 ـ 23.

[2] ـ ربما وجبت الإشارة هنا إلى أنَّ هذه النار هي المعادل الموضوعي لصلاة الاستسقاء التي يدعو إليها المسلمون في المناسبة ذاتها.

الوَسْم أو نارُ وشْم الإبل، و سواها من مواشي القبائل، ونارُ العَرْفَج، أو نارُ الزّحفتين. ومعظم هذه الأسماء التي أُطلقت على هذه النيران إنما تدلُّ على مناسبة إضرام كلٍّ منها، أو الغرض منه. وأما النيران المجازية أو التشبيهيّة التي ذكرها الجاحظ فأبرزها: نارُ السَّعالي والجِنّ والغيلان، نارُ البرق، نارُ أبي الحباحب، نارُ اليراعة، نارُ الحرب.

ثانياً: مناسبات إضرام النيران عند العرب وطقوسهم في ذلك:

كثيرةٌ هي المناسبات أو الظروفُ التي درج العرب على إشعال النار فيها، ترغيباً أو ترهيباً، أو سوى ذلك من أغراض لهم يرون في النار وسيلتهم إلى تأديتها، أو ركناً رئيساً من أركان الطقس المتصل بها؛ ففيما يتصل بنار "الاستمطار" ذكر الجاحظ أنَّ العرب في جاهليّتهم الأولى، كانوا إذا طال انحباس المطر عنهم، وبخلت عليهم السماء بخلاً عانوا معه العطش والقحط والجدبَ، استسقوا السماءَ بالنار، فسمُّوا لذلك تلك النارَ التي يضرمونها بهذه المناسبة بنار الاستسقاء، أو الاستمطار. ومن طقوسهم في هذه المناسبة: أنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء، واشتدّ الجَدب، واحتاجوا حاجةً ماسَّةً إلى المطر أو الغيث، اجتمعوا، وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثمّ عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها، السَّلَعَ والعُشَرَ[1] ، وصعدوا بهذه الأبقار في جبلٍ وَعْرٍ، وأشعلوا النّيران فيما عقدوه في أذنابها من أغصان، وضجّوا بالدّعاء والتضرّع إلى الله، معتقدينَ أنّ ذلك من أسباب السّقيا[2].

ومن المناسبات التي لا بدَّ للعرب فيها من إشعال النار العزمُ على التحالف أو التعاهد على أمر ما؛ فقد كانوا إذا عزموا على التحالف فيما بينهم على أمر، يضرمون ناراً يتحلّقون حولها ويتعاهدون على ما نووا التعاهد عليه. قال الجاحظ في حديثه عن هذه النار التي تُوقَدُ بهذه المناسبة :" ونار أخرى، هي التي توقد عند التّحالف؛ فلا يعقدون حِلْفَهم إلّا عندها، فيذكرون عند ذلك منافعَها، ويدعون إلى الله عزّ وجلّ، بالحرمان والمنع من منافعها، على الذي ينقض عهد الحِلف، ويُخَيِّس بالعهد، ويقولون في الحِلف: الدَّمُ الدَّمُ، والهَدَمُ الهَدَمُ، لا يزيده طلوع الشمس إلا شدّا، وطول اللّيالي إلّا مدّا، ما بلَّ البحرُ صوفةً، وما أقام "رضوى" في مكانه، (إن كان جبلهم رضوى) . وكلّ قوم يذكرون جبلهم، والمشهورَ من جبالهم. وربّما دنوا منها حتى تكادَ تحرقهم. ويهوّلون على من يُخافُ عليه الغدرُ بحقوقها ومنافعها، والتّخويف من حرمان منفعتها[3]"

ولا يرتبط إشعال النار بطقسٍ فيما عدا هاتين النارين (نار الاستمطار، ونار التحالف)؛ فالنيران الأخرى هي نيرانٌ مجرَّدةٌ من الطقوس، أي أنَّها نيرانُ مناسبات فقط، درج العرب على إشعال النار فيها، ولا يستوجبُ إشعالُها قيامَهم بشيء، أو قولَ شيء، كما هو الحال بالنسبة إلى النارين السابقتين؛ فنار الزائر أو الضيف الثقيل الذي يتمنُّون عدم رجوعه، هي نارٌ يوقدونها غِبَّ مغادرته المنزلَ، ابتهاجاً وتيمُّناً بعدم عودته إليهم مرّة أخرى[4]، وكذلك كانوا إذا أرادوا حرباً، أو شنَّ غارةٍ على أحد، وتوقَّعوا أن يلاقيهم الخصوم بجيشٍ عظيمٍ عمدوا إلى أعلى جبل عندهم وأشعلوا ناراً، ليبلغَ الخبرُ أصحابَهم، وربما أشعلوا لهذه الغاية نارين، إذا أرادوا المبالغةَ في استدعاء مناصريهم، وحشدَ أكبر عدد ممكن من الأنصار. فهذه النار هي رسالةٌ يبعث بها القومُ إلى حلفائهم لينصروهم على الخصوم، ولا يستدعي إيقادُها قيامَهم بشيء آخر، يمكن عدُّه طقساً من طقوسها، أو قولَ شيء يمكن أن يُعَدَّ من لوازمها. قال الجاحظ ـ بعد فراغه من الحديث عن نار المسافر الذي يُرجَى عدم رجوعه:"ونار أخرى، وهي النّار التي كانوا إذا أرادوا حرباً، وتوقّعوا جيشاً

[1] ـ نوعان من الشجر درج العرب على إشعال النار في اليابس من أغصانهما بهذه المناسبة. انظر لسان العرب: مادة "سلع" .

[2] ـ الحيوان: 4/ 466.

[3] ـ الحيوان 4/ 470 ـ 471.

[4] ـ الحيوان: 4/ 473 ـ 474.

عظيماً، وأرادوا الاجتماع، أوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً؛ ليبلغ الخبر أصحابهم، ... وكانوا إذا جَدُّوا في جمع عشائرهم إليهم أوقدوا نارين[1]".وكذلك كانت النار وسيلةَ صيّاديِّ الظِّباء، فقد كانوا يوقدون النار في المكان الذي يتوقّعون وجودَها فيه، لتَعْشَى، فلا تعود تراهم، فيسهل لذلك عليهم صيدُها، وكذلك كانوا يفعلون إذا أرادوا صيدَ النَّعام، أو الوقوفَ على بيضها[2]. أما إذا عرضَ لبعضهم سَبُعٌ في الليل، وخافوا هجومه عليهم، فربما أوقدوا لذلك ناراً يصدُّوه بها عن مهاجمتهم؛ لأن السِّباعَ إذا عاينتِ النارَ، وتأملتْها انشغلتْ بها عما سواها. ومن المناسبات الأخرى التي ارتبطت بإشعال النار عند العرب عقدُ النِّيّة على استدعاء عابريِّ السبيل، ومُلْتَمِسِي الطعام، أو القِرى. قال الجاحظ في حديثه عن هذه النار:" من أعظم مفاخر العرب، النارُ التي تُرْفَعُ للسَّفَر، ولمَنْ يلتمس القِرى. فكلما كان موضعُها أرفعَ كان أفخرَ"[3].

ومن النيران التي أشار إليها الجاحظ نارٌ درج الفارّون والهُرّاب أو الخلعاءُ على إيقادها، وهؤلاء لمّا كانوا يرومونَ التَّخفّي عن الأنظار التي تتربّص بهم، وتتحرّى آثارهم، كانوا يشعلون النارَ نهاراً كيلا يقدّموا للمتربّصين بهم دليلاً على وجودهم في هذا المكان أو ذاك. قال الجاحظ في إشارته الموجَزة إلى هذه النار: قال الشّاعر:(من الطويل)

ونارٍ قبيلَ الصّبح بادرتُ قَدحَها ... حيا[4] النّارِ قد أوقدتُها للمسافر

يقول: بادرتُ اللّيلَ، لأنّ النّار لا تُرى بالنهار، كأنه كان خليعاً أو مطلوباً[5].

ثالثاً: طريقة الجاحظ في معالجة موضوع النيران عند العرب:

لم تختلف طريقة الجاحظ في حديثه عن نيران العرب عنها في حديثه عن أيٍّ من مواضيع الكتاب؛ فمنهجه في المعالجة مبنيٌّ على "الاستطراد" الذي يتجلى في انتقاله من موضوع إلى آخر، ومن معنىً إلى سواه، من غير أن تكون ثمَّةَ رابطةٌ تربط بالضرورة بين ما كان فيه وما صار إليه من مواضيعَ أو معانٍ[6]. فبعد أن تحدّث الجاحظ عن مناسبة إشعال نار "الاستمطار" والطقس المرتبط بذلك، استشهد بأبيات شعرية، لأميّةَ بن أبي الصَّلْت، تؤكد استعانةَ الجاهليين بهذه النار وسيلةً إلى استجلاب الغيث، وتقدّمُ صورة مفصّلةً عن الطَّقس المرافق لذلك. قال: ولذلك قال أميَّةُ[7] أميَّةُ[7] (من الخفيف):

سَنَةٌ أَزْمَــةٌ تَخَيَّلُ بالنّــا ... سِ ترى للعِضَاهِ فيها صَرِيرا[8]

إذْ يَسَفُّونَ بالدّقيقِ وكانوا ... قبلُ لا يأكلون شيئاً فَطِيرا [9]

ويسوقون باقراً يطرُدُ السَّهْـ ... ـلَ مهازيلَ خشيةَ أن يبورا [10]

---

[1] ـ الحيوان 4/ 474.

[2] ـ الحيوان 4/ 484ـ 485.

[3] ـ الحيوان 5/ 134.

[4] ـ قال صاحب لسان العرب في تعليقه على هذا البيت:أَراد حياةَ النارِ فَحَذَفَ الْهَاءَ. انظر مادة حيا في اللسان.

[5] ـ الحيوان: 4/ 489.

[6] ـ انظر تعريفنا منهج الاستطراد في كتاب مصادر التراث العربي في الأدب واللغة والتراجم (دراسة واختيار) د يوسف زردة:110.

[7] ـ انظر حديث الجاحظ عن نار الاستمطار في الحيوان: 466 ـ 469. وانظر الأبيات في ديوان أميّة بن أبي الصلت:35.

[8] ـ سنةٌ أزمةٌ: شديدة القحط. تخيّل بالناس: تشتبه عليهم، فيتوهمون الخير ولا خير فيها. العضاه: كل شجر له شوك.

[9] ـ سففت الدقيق: أخذته غير معجون. الفطير: العجين الذي لم يختمر.

[10] ـ الباقر: جماعة البقر. انظر لسان العرب: (بقر). يبور: يهلك.

عاقدينَ النّيرانَ في شُكُرِ الأذْ نابِ عَمْداً كيما تهيجَ البحورا[1]

فاشتَوَتْ كلُّها فهاجَ عليهم ثمَّ هاجتْ إلى صبيرٍ صبيرا [2]

فرآها الإلــهُ تُرْشِــمُ بالقَطْ رِ، وأمسى جَنابُهُمْ ممطورا

فسقاها نَشاصُهُ واكفَ الغيْ ثِ منهُ، إذ رادعوه الكبيرا[3]

سَلَعٌ ما، ومثْلُهُ عُشَرٌ ما عائلٌ ما، وعالـتِ البنقورا[4]

وفي تعقيب الجاحظ على تلك الأبيات أشار إلى تصحيف الأصمعي في قراءة اللفظة الأخيرة من البيت الأخير، أي لفظة "البنقور"، ثم استطرد إلى ذكر معارف لغوية تمثَّلت في إثبات بعض المشتقات اللغوية من لفظة "البقر" قال: "هكذا كان الأصمعي ينشد هذه الكلمة،(أي البنقور) فقال له علماء بغداد: صحَّفْتَ، إنما هي البيقور، مأخوذة من البقر ... ويقال بقر، وبقير، وبيقور، وباقر. ويقال للجماعة منها قطيع، وإِجْلٌ، وُكوْر. ثمَّ أثبت بيتين من الشعر للوَرَلِ الطائي، يسخر فيهما ممّن يستمطرون السماء بمثل هذه الشعيرة من شعائر الجاهليّة. قال:" وأنشد القحذميُّ للوَرَلِ الطائي[5] (من البسيط):

لا درَّ درُّ رجالٍ خابَ سَعْيُهُمُ يستمطرونَ لدى الأزْماتِ بالعُشَرِ

أجاعلٌ أنتَ بيــقوراً مُسَلَّعَــةً[6] ذريــعةً لكَ بيــنَ اللـــهِ والمطرِ

وفي تعقيب الجاحظ على ذكر نار الحِلْفِ، والطَّقس المرتبط بها، يستطرد فيعرّفُ القارىءَ بأصل لفظة "الحِلْف"، ثمَّ يستطرد من ذلك إلى التذكير بالعلاقة بين تسمية بعض القبائل بـ "المِحاش" وممارستهم الشعيرةَ المرتبطةَ بنار التحالف. قال:"وأصل الحِلْف والتّحالف، إنما هو من الحَلْفِ والأيمان. ولقد تحالفت قبائلُ من قبائل مُرَّةَ بنِ عوفٍ، فتحالفوا عند نار فدنُوا منها، وعشَوا بها، حتّى محشَتْهم. فسُمّوا: المِحاشَ. ... ولذلك يقول النابغة[7](من الكامل):

جمّع مِحاشَكَ يا يزيدُ فإنّني جمّعتُ يربوعاً لكم وتميما

ولحقتُ بالنّسب الذي عيّرتَني وتركتُ أصلاً يا يزيدُ ذميما

وقوله: «تميم» يريد: تميمة، فحذف الهاء.

ويذكر الجاحظ من الشواهد الشعرية ما يدلُّ على أنّ العرب كانوا يُوقدونَ ناراً بُعيدَ مغادرةِ مَنْ لا يتمنّونَ رجوعه، ويعقّبُ على هذه الشواهد بشرحٍ يدلُّ على وجود هذه العادة لدى الجاهليين في مثل هذه المناسبة ، فيقول ـ بعد فراغه من الحديث عن نار التحالف ـ :"ونار أخرى، وهي النّار التي ربّما أوقدوها خلف المسافر، وخلف الزّائر الذي لا يحبّون رجوعَه. وكانوا يقولون في الدّعاء: أبعده الله وأسحقه، وأوقد ناراً خلفه، وفي إثره. وهو معنى قول بشار[8](من المتقارب):

---

[1] ـ الشُّكُر: مفردها شكير، وهو من الشعر .

[2] ـ هاجت الإبل: عطشت. والصبير: السحاب يثبت يوما وليلة لا يبرح، كأنه يصبر، أي يحبس.

[3] ـ النشاص: السحاب المرتفع. والواكف: الهاطل.

[4] ـ السلع والعشر: ضربان من الشجر. وعال الشيء فلانا: ثقل عليه، يريد أن السنة أثقلت البقر بما حملتها من السلع والعشر.

[5] ـ الحيوان: 4/ 468. وانظر البيتين أيضاً في عيار الشعر لابن طباطبا: 61. والحماسة البصرية: 2/396.

[6] ـ بيقوراً مسلَّعة: البقر وقد ربطت أغصان السَّلع في أذنابها تمهيداً لإضرام النار فيها استجلاباً للغيث.

[7] ـ ديوان النابغة: 102. وانظر لسان العرب: حوش، محش، حشا.

[8] ـ ديوان بشار بن برد: 2/51.

صحوتَ وأوقدتَ للجهل نارا وردَّ عليكَ الصِّبا ما استعارا

وأنشدوا[1](من الطويل):

وجَمَّةَ أقوامٍ حَمَلْتَ، ولم تكنْ لتُوقِدَ ناراً إِثْرَهمْ للتندّمِ

قال الجاحظ معقِّباً على هذا البيت:" والجمّة: الجماعة يمشون في الصلح. وقال الراجز في إبله:

نُقْسَمُ في الحقّ[2] وتُعْطَى في الجُمَمْ

قال الجاحظ معقّباً على هذا البيت: يقول: لا تندم على ما أَعطيتَ في الحَمالة، عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم ناراً كيلا يعودوا[3].

ويسير الجاحظ في حديثه عن نار الاستعانة بالأنصار والحلفاء ابتغاءَ مواجهة الخصوم سيرته في حديثه عن سواها من النيران؛ فيُثْبتُ من الشواهد ـ ولا سيما الشعرية منها ـ ما يدلُّ على إشعال العرب في الجاهلية النارَ لهذه الغاية، فقال: ونار أخرى وهي النّار التي كانوا إذا أرادوا حرباً، وتوقّعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً؛ ليبلغ الخبر أصحابهم. وقد قال عمرو بن كلثوم[4]: [من الوافر]

ونحنُ غداةَ أُوقِدَ في خَزازٍ[5] رفدنا فوقَ رِفْد الرّافدينا

وإذا جدّوا في جمع عشائرهم إليهم أوقدوا نارين. وهو قول الفرزدق[6]:(من الكامل)

لولا فوارسُ تغلبَ ابنةِ وائلٍ سدَّ العدوُّ عليكَ كلَّ مكان

ضربوا الصّنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفتا على النّيران

ولم يزدْ الجاحظ في تعقيبه على ذكر النار التي يشعلها صيّادو الظباء، وطالبو بيض النَّعام على ذكر شاهد شعري يدلُّ على استعانة الصيّادين بالنار. قال معقِّباً على ذكر النار التي يُضرمها الصيادون ليلاً لتعشى الظباء وسواها مما يريدون صيدَه: لذلك قال طُفَيْلٌ الغَنَويُّ[7]: (من الطويل)

عوازبُ لم تسمعْ نُبُوحَ مَقامَةٍ ولم ترَ ناراً تِمَّ حَوْلٍ مُجَرَّمِ

سوى نارِ بيضٍ أو غَزالٍ بِقَفْرَةٍ أَغَنَّ مِنَ الخُنْسِ المَناخِرِ توأمِ

وفي تعريف الجاحظ نارَ وَسْمِ الإبل أو المواشي، استعان برجز لبعض اللصوص، وبيت من الشعر دلَّ من خلالهما على المُرادِ بهذه النار، فقال[8]:" ونار أخرى، وهي نار الوسْمِ والمِيْسَم[9] يقال للرجل: ما نار إبلك؟ فيقول:عِلاط، أو خِباط،

---

[1] ـ عيار الشعر: 54. وثمار القلوب للثعالبي: 827.

[2] ـ في الحق: أي في حقِّ الأضياف الذين ينحرها لهم.

[3] ـ الحيوان: 4/ 474.

[4] ـ شرح القصائد السبع للزوزني: 409. وشرح القصائد العشر للتبريزي: 352. وانظر لسان العرب: خزر.

[5] ـ خزاز: يوم من أيام العرب.

[6] ـ ديوان الفرزدق: 641.

[7] ـ ديوان طفيل: 107. ثمار القلوب للثعالبي: 75.

[8] ـ انظر حديث الجاحظ عن نار الوسم في الحيوان: 4/ 491 ـ 492.

[9] ـ نارالوسم: هي وضع علامة على عضوٍ ما من أعضاء الإبل أو غيرها، لتعرف بها؛ فتُحْمَى لتلك الغاية حديدة ثم توضعُ في المكان المُراد تعليمه.

خِباط، أو حَلْقة[1]، أو كذا وكذا. وقرّبَ بعضُ اللّصوص إبلاً من الهُوّاشَةِ[2]، وقد أغار عليها من كلّ جانب، وجمعها من من قبائل شتى، فقرّبها إلى بعض الأسواق، فقال له بعض التّجار: ما نارُك؟ وإنما يسأله عن ذلك؛ لأنهم يعرفون بمِيسَمِ كلّ قوم كَرَمَ إبلهم من لؤمها، فقال:(من الرجز)

تسألُني الباعةُ ما نِجارُها إذ زعزعُوها[3] فَسَمَتْ أَبصارُها

فكلُّ دارٍ لأُناسٍ دارُها وكلُّ نارِ العالمينَ نارُها

وقال الكردوس المرادي: (من الطويل)

تسائلني عن نارها ونتاجها وذلك عِلْمٌ لا يحيط به الطَّمْشُ

والطّمش: الخَلْقُ. والورى: النّاسُ خاصّةً.

وثمّةَ نارٌ يدلُّ اسمها على مناسبتها، وهي نار الزَّحفتين، أو نار العَرْفج، يتحدّث عنها الجاحظ حديثاً مجرَّداً من الشواهد. قال :"ومن النيران نار الزّحفتين ، وهي نار أبي سريع. وأبو سريع هو العرفج ... وإنما قيل لنار العرفج: نار الزحفتين؛ لأن العرفج، إذا التهبت فيه النار أسرعت فيه وعظُمَت، وشاعت واستفاضت، في أسرع من كل شيء. فمن كان في قربها يزحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها، في مثل تلك السرعة؛ فيحتاج الذي يزحف عنها أن يزحف إليها من ساعته؛ فلا تزال للمُصْطلي كذلك، ولا يزال المصطلي بها كذلك. فمن أجل ذلك قيل: نار الزّحفتين[4]".

ولا يُغفل الجاحظ الإشارةَ إلى ما يمكن أن نسميه بنار المُحتالينَ من بعض سَدَنَةِ بيوت العبادة، وهي نارٌ كانَ السَّدَنة يُضرمونها في بعض العيدان، ويرمون بها مَنْ يدخلُ بيوتَ العبادة، ليوهموهم أنَّ الأصنام هي التي ترميهم بهذا الشَّرر؛ لأنها غاضبة عليهم، وغير راضية عنهم، ولذلك فهي ترميهم بهذا الشَّرر. قال الجاحظ:" وما زالت السّدنةُ تحتال للنّاس جهةَ النّيران بأنواع الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة القيامة ببيت المقدس بمصابيحها، وأنّ زيت قناديلها يُسْتَوقَدُ لهم من غير نارٍ، في بعض ليالي أعيادهم. وبمثل احتيال السّادن لخالد بن الوليد، حين رماه بالشّرر؛ ليوهمه أنّ ذلك من الأوثان، أو عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها، والتعرّض لها؛ حتى قال: (من الرجز)

يا عزُّ كفرانَك لا سبحانَك إنّي وجدتُ اللهَ قد أهانك

حتى كشف الله ذلك الغطاء، من رسول الله صلى الله عليه وسلم[5].

ونار القِرى من بين النيران التي يُكثر الجاحظ من إيراد الشواهد الشعرية عليها، فيذكر خمسةً من المقطّعات الشعرية، امتدح فيها الشعراء أعلاماً اشتُهِروا بإشعالهم النيرانَ على قمم الجبال ليهتدي إليها كلُّ مقرورٍ، أو جائع؛ فيثبتُ لأحدهم أربعةَ أبياتٍ من بينها قولُه للممدوح[6]: (من المتقارب)

كفيتَ العُفاةَ طِلابَ القِرى ونبحَ الكلاب لمُسْتَنْبِحِ

---

[1] ـ العلاط:سمةٌ في عرض عنق البعير، والخِباط:سمة تكون في الفخذ، وهي سمة إبل بني سعد، وقد تكون في وجه البعير. والحلقة سمة على شكل الدائرة تكون على الفخذ أو أصل الأذن.

[2] ـ الهواشة: الذين يتولون تنفير الإبل أثناء الغارة لتتفرق قبلَ أن يجمعها المغيرون.

[3] ـ زعزعوها: ساقوها سوقاً شديداً بغيةَ اختبار سلامتها.

[4] ـ الحيوان: 107/5.

[5] ـ انظر الخبر في الحيوان:4/ 483 ـ 484.

[6] ـ العفاة: جمع عاف، وهو من يطلب المعروف. المستنبح: الذي يضل الطريق فينبح لترد عليه الكلاب بنباحها، فيستدل على أهل المنزل.

ويُثْبتُ مقطوعةً أخرى من بيتين اثنين، يشيدُ في أولهما بالممدوح الذي دأبَ على إشعال النار ليلاً ليهتدي بها إلى فِنائه كلُّ ذي حاجة، من طعامٍ أو غيره، لا لأنه من أكثر القوم مالاً، بل لأنه أكرمهم خصالا. قال: وأنشدني أبو الزِّبرقان:(من الوافر)

له نارٌ تُشَبُّ بكلّ ريْعٍ[1] إذا الظلماءُ جَلَّلتِ البقاعا

وما إن كان أكثرهم سواماً[2] ولكن كان أرحبهم ذراعا

ويرثي أحدهم شخصين، فينوِّه بنارهما التي أشبهت ضوءَ الشمس الذي لا تخطئه عين.قال: (من الطويل)

على مثلِ همّامٍ ـ ولم أرَ مثْلَه ـ تبكي البواكي، أو لبشرِ بنِ عامرِ

كأنَّ سَنا نارَيْهما كلَّ شَتْوَةٍ سَنا الفجرِ يبدو للعيونِ النّواظرِ

ويتَّخذ عوف بن الأحوص من النار التي دأب على إشعالها حيثُ يراها كل ذي حاجة، من طعام أو غيره، سبيلاً إلى الفخر، بوصفها دليلاً على الكرم، ورحابة الصدر، فقال مفتخراً: (من الطويل)

ومُسْتَنْبِحٍ يخشى القَواءَ[3] ودونَه من اللّيل بابا ظلمةٍ وستورُها

رفعت له ناري، فلمّا اهتدى بها زجرتُ كلابي أن يَهِرَّ عَقُورُها[4]

كذلك أَوْلَى الجاحظ النار المجازية من العناية بها ما أولاه لغيرها من النيران الحقيقيّة التي جئنا على ذكرها؛ فقد جعل يذكر هذه النيران، واحدةً تلوَ أخرى، فيعرّف بها تعريفاً موجزاً، ثمّ يستشهد على ما يدلُّ على معرفة العرب بها، وتسميتهم إياها ناراً على سبيل التشبيه والتمثيل، لا على سبيل الحقيقة. فالحربُ منذ القدم والنار توأم، لأنّ ما تخلّفه الحرب من آثار مدمِّرة، أشبه بما تخلّفه النيران فيما تشبُّ فيه، ولذلك كانت كلٌّ من الحرب والنار منذ القدم وجهين لعملة واحدة. قال الجاحظ:" ويذكرون ناراً أخرى، وهي على طريق المثل والاستعارة، لا على طريق الحقيقة، كقولهم في نار الحرب[5]. الحرب[5]. قال ابن ميّادة:(من الطويل)

يداه: يد تنهلّ بالخير والنّدى وأخرى شديدٌ بالأعادي ضريرُها[6]

وناراه: نارٌ نارُ كلِّ مُدَقَّعٍ[7] وأخرى يُصيبُ المجرمينَ سعيرُها

وربما كان جديراً بالذكر أن نشير إلى أنَّ النارَين اللتين ذكرهما الشاعر، إحداهما حقيقيّة، هي من باب نار "القِرى" التي تُشَبُّ لذوي الحاجات على اختلافها، أما الأخرى فمجازيّةٌ تشبيهيّةٌ، أسماها الجاحظ نار الحرب. ودلَّ الشاعر على ما تُحدثه في الأعداء من فتك بهم وأذى كبير، وذلك بقوله: يصيبُ المجرمينَ سعيرُها.

ومن بين النيران المجازيّة التي ذكرها الجاحظ "نار الغول[1]"، وعرّفها بقوله:"هي النار التي تذكرُ الأعراب أنَّ الغولَ تُوقدها ليلاً للعبث، والتخييل، وإضلال السابلة" ثمَّ يستشهدُ على ذلك ببيتين لأبي المِطراب عبيدِ بنِ أيّوبَ العنبريِّ: (من الطويل)

---

[1] ـ الريع: المكان المرتفع. جللت: غطت.

[2] ـ السوام: الإبل الراعية.

[3] ـ القواءُ: الأرض الخالية التي يُخشى الهلاك فيها.

[4] ـ الهريرُ: صوت الكلب دون النُّباح. والعقور: الكلب الضاري.

[5] ـ انظر حديث الجاحظ عن نار الحرب في الحيوان: 133/5 ـ 134. وانظرالبيتين في ديوان ابن ميادة:129.

[6] ـ الضرير: الشديد.

[7] ـ المُدَقَّع: هو الفقير الذليل الذي كلٌّ ينهره ويدفعه عنه.

فلله دَرُّ الغول أيُّ رفيقةٍ لصاحبِ قَفْرٍ خائفٍ مُتَقَتِّرِ
أَرَنَّتْ بلحْنٍ بعدَ لحنٍ وأوقدتْ حواليَّ نيراناً تبوخُ وتزهرُ

وثمَّة نيران أخرى مجازيّة ذكرها الجاحظ، واستشهد على كلٍّ منها بما يدلُّ على معرفة العرب بها؛ مثلُ "نار الحباحب[2]" و"نار البرق" و"نار اليراعة". قال الجاحظ: "ويصفون ناراً أخرى، وهي قريبة من نار أبي الحباحب، وكلُّ نارٍ تراها العينُ ولا حقيقةَ لها عند التماسها، فهي نار أبي الحباحب. ولم أسمع في أبي حباحب نفسه شيئا". قال القُطاميّ في بعض هجائه بني قيسٍ مشبِّهاً نيرانهم بنار أبي الحباحب: (من الطويل)

ألا إنَّما نيرانُ قيسٍ إذا اشْتَوَتْ لطارقِ ليلٍ مثلُ نارِ الحباحبِ

ويعرّف الجاحظ بنار البرق من خلال تعقيبه على بيت من الشعر لأحد الأعراب، قال: وقال الأعرابيّ، وذكر البرق: (من الطويل)

نارٌ تعودُ بهِ للعُودِ جِدَّتُهُ والنّارُ تُشْعِلُ نيراناً فتحترقُ

قال الجاحظ في تعقيبه على هذا البيت: يقول: كلّ نار في الدّنيا فهي تحرق العيدان وتبطلها وتهلكها، إلّا نارَ البرق، فإنّها تجيء بالغيث. وإذا غِيْثَتِ الأرضُ، ومُطِرَتْ أحدث الله للعيدان جِدَّةً، وللأشجار أغصاناً لم تكن. أمّا "نار اليراعة" فيعرِّف الجاحظ بها تعريفاً مجرَّداً من الشواهد، فيقول ـ بعد حديثه السالف عن نار البرق: "ونار أخرى، وهي شبيهة بنار البرق، ونار أبي حباحب، وهي "نار اليراعة". واليراعةُ: طائرٌ صغيرٌ، إن طار بالنّهار كان كبعض الطّير، وإن طار باللّيل كان كأنّه شهابٌ قُذِفَ أو مصباحٌ يطير.

رابعاً: طبيعة النار وفوائدها وألوانها:

لم تقف عناية الجاحظ بموضوع النار عند ذكره مناسبات إيقادها، وبعض الطقوس المرتبطة بهذه المناسبات، والاستعانة على ما يذكره من تلك المناسبات والطقوس بما يُجلّيها ويؤكدُها من أشعارٍ وأراجيزَ يشفعُها بما يراه مناسباً من تعليقات وشروح، إنما تعدَّت عنايته ذلك إلى الحديث عن النار بعامّة، من جهة طبيعتها، وفوائدها التي تفوق الحصرَ، وما قيل في ألوانها، وأوصافها، وعلاقتها بالأشياء تداخلاً فيها أو انفصالاً عنها.

فأثر النار في كلٍّ من الماء والأرض يجعل حياة الكائنات في الماء وعلى الأرض ممكنةً؛ إذ يأخذ كلُّ كائن من الحرارة ما يمكِّنه من البقاء حيّاً. وأثر النار الكامنة في جوف الأرض يمكِّن الناس من استثمار ما في باطن الأرض من معادنَ وغيرها. قال الجاحظ نقلاً عن أبي إسحق النَّظّام:" .. ثم بالنار يعيش أهل الأرض من وجوه: فمن ذلك صنيعُ الشمس في برد الماء والأرض؛ لأنها صِلاءُ جميع الحيوان، عند حاجتها إلى دفع عاديةِ البرد، ثمّ سراجُهم الذي يستصبحون به، والذي يميزون بضيائه بين الأمور. وكلُّ بخار يرتفع من البحار والمياه وأصول الجبال، وكلُّ ضبابٍ يعلو، وندىً يرتفع، ثم يعود بِرْكَةً ممدودةً على جميع النبات والحيوان، فالماءُ الذي يُحِلُّهُ ويُلَطِّفُهُ، ويفتح له الأبواب، ويأخذ بضَبْعه[3] من قعر البحر والأرض النارُ المخالطةُ لهما من تحت، والشمس من فوق. وفي الأرض عيون نار، وعيون قطران، وعيون نفط وكباريت، وأصنافِ جميع الفِلَزِّ من الذهب والفِضَّة والرّصاص والنّحاس. فلولا ما في بطون تلك الأصناف

[1] ـ انظر حديث الجاحظ عن نار الغول في الحيوان: 123/5

[2] ـ انظر حديثه عن كلٍّ من نار الحباحب، ونار البرق، ونار اليراعة في الحيوان: 4/ 486 ـ 488.

[3] ـ الضَّبْعُ: العَضُد. وأخذ بضبعه: عاونه، وأخذ بيده.

من أجزاء النار لما ذاب في قعرها جامدٌ، ولَما انسبكَ في أضعافها شيء من الجواهر، ولَما كان لمتقاربها جامعٌ، ولمختلِفِها مفرِّقٌ[1]".

وعن آثارها المباشرة في الإنسان، نقل الجاحظ عن الأعراب ما يُفيدُ باعتقادهم أنَّ رؤيةَ الإنسان النارَ ـ ولو من بعيد ـ قد تبعثُ فيه الإحساسَ بالدفء، وهذا أثر نفسيٌّ لا عضويٌّ. قال: وفي الأحاديث السّائرة المذكورة في الكتب، أنَّ رجلاً أُلقِيَ في ماءٍ راكدٍ في شتاء باردٍ، في ليلة من الحنادس[2]، فبقيَ الرجل حيّاً، وهو في ذلك تارزٌ[3]جامد، لأنه كان ينظر إلى نارٍ، كانت تجاهَ وجهه في القرية، أو مصباحٍ، فلما طُفِئَتْ انتفض، وسقط حيثُ أُلقيَ في البركة ميتاً.

وربما تعدّى أثر النار في الإنسان حدِّ إمداده بالدفء، إلى التأثير فيه نفسيّاً؛ قال الجاحظ:" وللنار من الخصال المحمودة أنَّ الطفلَ لا يناغي شيئا كما يناغي المصباح. وتلك المناغاة نافعةٌ له في تحريك النفس، وتهييج الهِمَّة، والبعثِ على الخواطر، وفَتْقِ اللَّهاةِ، وتسديد اللسان، وفي السرور الذي له في النفس أكرم أثر[4].

ولون النار من الجوانب التي يوليها الجاحظُ عنايةً تتجلّى في محاولته التَّثَبُّتَ من حقيقة ما يبدو للعين من لونها، أهو أحمرُ كما يظهر للعِيان، أم أنَّ هذه الحُمْرةَ مُتَوَهَّمَةٌ؟.

لقد ذهب الجاحظ إلى أنَّ النار لونُها أبيضُ في الحقيقة، وليس أحمرَ كما يبدو للعِيان، والذي يُكْسبُها الحُمْرةَ هو الغبارُ والهواءُ الذي يفصل بين النار والعين التي تراها، أو تنظر إليها. ويستدلُّ الجاحظ على ذلك بأنَّ قرصَ الشمس أو قرصَ القمر يبدو أبيضَ للعيان، عندما يكون في كبد السماء، ثمَّ يكتسب الحُمْرة أو الصُّفْرةَ إذا غرُب، وكذلك حاله إبّانَ شروقه، كما أنَّ درجةَ أو نسبةَ الحُمرة في النار تتفاوت، وتختلف باختلاف المادَّة التي تشتعل النار فيها. قال الجاحظ:" وزعموا أن النارَ حمراءُ، وذهبوا إلى ما ترى العينُ. والنار في الحقيقة بيضاء. ... وكلُّ نورٍ وضياءٍ هو أبيضُ، وإنما يَحْمَرُّ في العين بالعَرَضِ الذي يعرِضُ للعين. فإذا سَلِمَتْ من ذلك العَرَضِ، وأفضت إليه العينُ رأته أبيضَ. وكذلك نار العود تنفصل من العود، وكذلك انفصال النار من الدّهن ومعها الدخان ملابساً لأجزائها. فإذا وقعت الحاسَّةُ (يعني حاسّة البصر)على سواد أو بياض في مكان واحد، كان نتاجُهُما في العين منظرَ الحُمْرة. ولو أنّ دخاناً عرض بينَكَ وبينَه قرصُ الشمس أو القمر لرأيتَه أحمرَ. وكذلك قرصُ الشمس في المشرق أحمرُ وأصفرُ، للبخارِ والغبارِ المُعْتَرِض بينك وبينه. والبخارُ والدخانُ أخَوان. ومتى تحلّق القرص في كبد السماء، فصار على قمة رأسك، ...لا تراه حينئذ إلا في غاية البياض. وإذا انحطّ شرقاً أو غرباً صار كلّ شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء، ملابساً للغبار والدخان والبخار، وضروب الضَّباب والأنداء، رأيته أحمرَ أو أصفر. ومن زعم أن النار حمراء، لم يكذب إنْ ذهب إلى ما ترى العين، ومن ذهب إلى الحقيقة والمعلوم في الجوهريَّة، فزعم أنها حمراء، ثم قاس على ذلك جَهِلَ وأخطأ. وقد نجد النار تختلف على قدر اختلاف النّفط الأزرق، والأسود، والأبيض. وذلك كله يدور في العين مع كثرة الدخان وقلته. ونجد النار تتغير في ألوانها في العين، على قدر جفوف الحطب ورطوبته، وعلى قدر أجناس العيدان والأدهان، فنجدها شقراء، ونجدها خضراء إذا كان حطبها مثل الكبريت الأصفر[5]".

---

[1]ـ الحيوان: 5/ 101ـ 102.

[2] ـ الحنادس: ثلاث ليال من الشهر مظلمات.

[3]ـ التارز: الصلب الشديد

[4] ـ الحيوان: 5/ 119.

[5] ـ الحيوان: 5/ 60 ـ 61.

وإذا فرغ الجاحظُ من حديثه العِلميّ عن لون النار، وأسباب اختلاف درجة الحُمْرة فيه، عمد إلى زاده الأدبي الثّرِّ ليوشّحَ ما ذكره بما حضره من الشواهد الشعرية، التي جاء الشعراء فيها على ذكر لون النار، فقال: قال الصّلتان الفهميّ في النار: [من الطويل]

وتُوقدُها شقراءَ في رأس هضبةٍ ليعشو إليها كلُّ باغٍ وجازعِ [1]

وقال مزرّد بن ضرار : [من الطويل]

فأبصر ناري وهي شقراءُ أُوقِدَتْ بعلياءِ نَشْزٍ [2]، للعيون النواظر

وقال الأزرق الهمْدانيّ: [من الطويل]

ونوقدها شقراءَ من فَرْعِ تَنْضُبٍ ولَلْكُمْتُ أَرْوى للنّزال وأشبعُ[3]

وذلك أن النار إذا ألقي عليها اللحم فصار لها دخان، اصهابّت[4]، بدخان ماء اللحم وسواد القُتار[5]. وهذا يدل أيضاً على على ما قلنا.

وبغضِّ النَّظر عمّا يجعل لونَ النارِ أحمرَ في عين الرائي، على غير حقيقته في الجوهريَّة، فقد كانت النارُ الحمراءُ حسنةً، بل جميلةً في عيون الناظرين، إلى درجةٍ شُبِّهَ معها الوجهُ الجميلُ بالنار للحُمْرة التي تزينه، كما شُبِّه توقُّدُ ذهن الإنسان الذّكي بالنار، وكذلك وصفوا الشّراب الذي يأخذ بألباب شاربيه بالنار، ثمّ إنّها تعلو غيرَها من مُقوِّمات الكون أو عناصره، ولا يعلوها شيءٌ من تلك المقوِّمات أو العناصر. قال الجاحظ:" قالوا: وليس في العالم جسم صِرْفٌ غيرُ ممزوجٍ، ومُرْسَلٌ غيرُ مُرَكَّبٍ، ومُطْلَقُ القِوى، غيرُ محصورٍ ولا مقصورٍ، أَحْسَنُ من النار. قال: والنار سماوية علوية؛ لأن النار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء. ويقولون: "شراب كأنه النارُ"، و" كأنَّ لون وجهها النار" وإذا وصفوا بالذكاء قالوا: " ما هو إلا نار"، وإذا وصفوا حُمْرةَ القِرْمِز[6]، وحُمْرَةَ الذهب قالوا: ما هو إلا نار. قال: وقالت هند[7]: " كنتُ والله في أيام شبابي أحسنَ من النار المُوقَدة ". ورأى الجاحظ في لفظة "الموقدة " نافلةً من القول، كانت هندُ بغنىً عنها. قال: وأنا أقول: لم يكن بها حاجةٌ إلى ذكر "الموقدة" وكان قولها: أحسن من النار يكفيها. وقال قدامةُ حكيمُ المشرق في وصف الذِّهن:" هو النار الخامدة[8]".

ويحاول الجاحظ تلمُّسَ أوجه الشَّبه بين النار والإنسان، وكأنّا به يحاول ألا يغادرَ جزئيّة من جزئيّات الموضوع من غير أن يقول فيها ما يستطيع قولَه، أو ما يرى بالمُتلقّي حاجةً إلى معرفته، ممّا هو متصل بهذا الموضوع. ومن أبرز ما أشار الجاحظ إليه من أوجه الشَّبه بينهما وجهان اثنان: خلاصةُ أولهما أنَّ إمكانيّة عيشٍ أو حياةِ أحدهما في مكانٍ ما دليلٌ على إمكانيّة عيش الآخر فيه؛ فحيثما استطاعت النار أن تبقى مشتعلةً استطاع الإنسان أن يعيش، وحيثما تعذَّر بقاؤها مشتعلةً تعَذَّر بقاءُ الإنسان حيّاً فيه. وخلاصةُ وجه الشَّبه الثاني أنَّ ما يعتري النارَ قبيلَ انطفائها من ازديادٍ

[1] ـ الباغي ها هنا هو الطالبُ أو المُريدُ. والجازع: الذي يجزع الوادي أي يقطعه.

[2] ـ النَّشْزُ: المكان المرتفع.

[3] ـ الحيوان:5/ 64.

[4] ـ الصُّهبةُ: حمرةٌ يخالطها السَّواد.

[5] ـ القُتارُ: ما يتصاعد من الشواء

[6] ـ صباغٌ أرمنيٌّ أحمرُ.

[7] ـ هي هندُ بنتُ الخُسِّ، وصفها الجاحظ في البيان والتبيين وصفاً رائعاً. وربما سمّاها بعضهم الزرقاء.

[8] ـ الحيوان: 5/ 94ـ 95.

في التَّوقُّد والاضّطرام، يشبه ما يعتري الإنسانَ قبيلَ وفاته من نشاط، وقدرةٍ على الحركة، وسوى ذلك من آيات العافية. قال: وصف بعضُ الأوائل شَبَهَ ما بين النار والإنسان، فجعل ذلك قرابةً ومشاكلةً، فقال: وليس بين الأرض وبين الإنسان، ولا بين الإنسان والماء، ولا بين الهواء والإنسان، مثلُ قرابةِ ما بينَه وبينَ النار،... وإنما قضيتُ لهما بالقرابة، لأني وجدتُ الإنسانَ يحيا ويعيش حيث تحيا النار وتعيش، ويموت ويتلف، حيث تموت النار وتتلف ؛ أي تنطفىء. وقد تدخل نارٌ في بعض المطامير[1]والجِبابِ، والمغارات، فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار في ذلك الموضع مات. ولذلك لا يدخلها أحدٌ ما دامت النار إذا صارت فيها ماتت. ولذلك يعمد أصحاب المعادن والحفاير إذا هجموا على فَتْقٍ في بطن الأرض أو مغارة، قدّموا شمعةً في طرفها أو في رأسها نارٌ، فإنْ ثبتتِ النارُ وعاشتْ، دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك، وإلا لم يتعرّضوا له. وإنما يكون دخولهم بحياة النار، وامتناعهم بموت النار. وكذلك إذا وقعوا على رأس الجُبّ الذي فيه الطعام، لم يجسروا على النزول فيه، حتى يرسلوا في ذلك الجُبّ قنديلاً فيه مصباحٌ، أو شيئاً يقوم مقام القنديل، فإن ماتَ لم يتعرّضوا له. ... قال: وممّا تُشبَّهُ النارُ فيه بالإنسان، أنك ترى للمصباح قبيل انطفائه ونفاد دهنه، اضطراماً وضياءً ساطعاً، وشعاعاً طائراً، وحركةً سريعةً وتنقضاً[2] شديداً، وصوتاً متداركاً، فعندها يخمد المصباح. وكذلك الإنسان، له قبل حال الموت، ودُوَيْنَ انقضاء مدّته بأقرب الحالات، حالٌ مُطْمِعَةٌ تزيد في القوة على حاله قبل ذلك أضعافاً، وهي التي يسمونها راحةَ الموت، وليس له بعد تلك الحال لَبْثٌ[3]".

وبعد:

فربما استطعنا من خلال ما سلف لنا من قول أن ندلَّ على ما يُنْبِي عن مبلغ عناية الجاحظ بالحديث عن النار بعامة، ونيران العرب منها بخاصة، الحقيقي منها والمجازي التشبيهي، وتجسُّدِ هذه العناية، في استعانته بما حضره من شواهد، وتعقيبه على هذه الشواهد بما يجلّيها من شرح وتفسير، وعنايته بالحديث عن بعض ما يتصل بها من معارف تتعلق بطبيعتها، وفوائدها، وألوانها، وسوى ذلك ممّا أثبتناه من أقواله فيها.

المصادر والمراجع:

1. ثمار القلوب للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ببيروت، 2003 م.
2 ـ الحماسة البصرية، لابن الحسن البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب ببيروت، 1983 م.
3 ـ الحيوان للجاحظ، تح محمد عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي ببيروت، الطبعة الثالثة، 1966.
4 ـ ديوان أمية بن أبي الصلت، تح بشير يموت، المكتبة الأهلية ببيروت، 1934 م.
5 ـ ديوان بشار بن برد، تح محمد طاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، 1966.
6 ـ ديوان طفيل الغنوي، تح حسان فلاح أوغلي، دار صادر بيروت، 1997 م.
7 ـ ديوان الفرزدق، منشورات دار الكتب العلمية، ببيروت 1987 م.
8 ـ ديوان ابن ميادة، تح حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1982 م.
9 ـ ديوان النابغة الذبياني، تح شكري فيصل، دار الفكر العربي بدمشق، 1968.

[1] ـ المطامير: مفردها مطمورة، وهي حفرة في الأرض تخزَّنُ فيها الحبوب.

[2] ـ التَّنَقُّضُ: صوت الفتيلة إذا قاربت الانطفاء.

[3] ـ الحيوان: 5/ 109 ـ 111.

10 ـ شرح القصائد السبع للزوزني، منشوات الدار العالمية للنشر في القاهرة، 1993م .
11 ـ شرح القصائد العشر للتبريزي، المطبعة المنيرية بالقاهرة 1933.
12 ـ عيار الشعر: ابن طباطبا ت 322هـ. تح عبد العزيز المانع، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة بلا تاريخ.
13 ـ لسان العرب: ابن منظور ت 711هـ،منشورات دار صادر، ببيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ.
14 ـ مصادر التراث العربي في الأدب واللغة والتراجم(دراسة واختيار) د يوسف زردة، مطبوعات جامعة تشرين 2009 م.

Sources and references:

1- Thimar Al-Quloub by Al-Thaalibi, achieved by Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Al-Asriyya Library in Beirut, 2003 AD.
2 - The Visual Enthusiasm, by Ibn al-Hasan al-Basri, investigated by Mukhtar al-Din Ahmad, The Book World in Beirut, 1983 AD.
3 - Al-Hayyal by Al-Jahiz, Tahih Muhammad Abd al-Salam Haroun, House of Revival of Arab Heritage in Beirut, third edition, 1966.
4 - Diwan of Umayyah ibn Abi al-Salt, Tah Bashir Yamout, The National Library in Beirut, 1934 AD.
5 - Diwan of Bashar Ibn Bard, Tahih Muhammad Taher Ibn Ashour, Committee of Composition, Translation and Publishing, Cairo, 1966.
6 - Diwan Tufail Al-Ghanawi, Tah Hassan Falah Oghli, Dar Sader, Beirut, 1997 AD.
7- Diwan Al-Farazdaq, Dar Al-Kutub Al-Ilmia Publications, Beirut, 1987 AD.
8 - Diwan Ibn Mayada, T. Hana Jamil Haddad, Publications of the Academy of the Arabic Language in Damascus, 1982 AD.
9- Diwan of Al-Nabigha Al-Dhibiani, Tah Shukri Faisal, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Damascus, 1968.
10 - Explanation of the Seven Poems of Al-Zawzani, Publications of the International House for Publishing in Cairo, 1993 AD.
11- Explanation of the Ten Poems of Tabrizi, Al-Muniriya Press, Cairo, 1933.
12- Hair caliber: Ibn Tabataba, 322 AH. Tah Abdul Aziz Al-Manea, Publications of Al-Khanji Library in Cairo without a date.
13- Lisan al-Arab: Ibn Manzur, d. 711 AH, Dar Sader Publications, Beirut, third edition, 1414 AH.
14- Sources of Arab heritage in literature, language and translations (study and selection) Dr. Youssef Zarda, Tishreen University Press, 2009.